كلمة الدكتور ممدوح خسارة في حفل استقباله

الأستاذ الدكتور رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق

السادة العلماء الأفاضل

الحضور الكريم

سلام عليكم ورحمة من الله وبركات

لابدَّ لي أولاً من أن أتوجه بالشكر لأساتذتي أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق، الذين ارتَضَوْا أن أكون واحدًا منهم، مرابطًا معهم على الثَّغر اللغوي الذي هو الآن خندق الصدام الأول في المنازلة الثقافية المحتدمة في العالم، والإكبارِ للسيد رئيس الجمهورية الذي شرَّفني بحمل المسؤولية اللغوية في جملة مَنْ انتدبهم لهذه المهمَّة النبيلة، والتقديرِ لكل مَنْ أسهم في تعليمي، بدءًا بمَنْ لقنني حروف الهجاء العربية، وانتهاءً بمَن فتح لي مغاليق أسرارها، داعيًا للراحلين منهم بالرحمة وحسن المثوبة، وللأحياء بطول العمر وصلاح العمل.

السادة الأجلاَّء:

ثمة مصادفتان لافتتان في موقفي هذا:

الأولى: أن يكون العالم الذي شرَّفني بالتقديم، الأستاذ الدكتور إحسان النص أولَ من وجهني وحَفَزني إلى ميادين البحث اللغوي وحِوائه، عندما قال لي قبل أربعين سنة في مقابلة لانتقاء المدرسين: «دَعْك من الوظيفة يا بنيّ، وعليك بالدراسات العليا)، فكانت كلمته الطيِّبة تلك، كالبذرة الطيبة لاقت في نفسي أرضًا قابلة، احتضَنتْها نحو عشرين عامًا، إلى أن هُيِّئ لها أن ترى النور وتنمو فتُثمر، والأمور مرهونة بأوقاتها، فإليك يا صاحب الكلمة الطيبة

عرفاني بجميلك الذي دفع بي لأكون باحثًا وخادمًا للعربية الخالدة. وإذا كان ما أسبغتموه عليَّ، أنتم والأستاذ الدكتور رئيس المجمع، من ثناء أنا دونه، فإنه سيبقى مَطْمحًا لا أَنِي في السَّعْي نحوه والتشوُّفِ إليه.

والمصادفة الثانية: أن يكون المجمعيُّ السَّلفُ الذي أتحدث عنه هو أستاذي وأستاذ الجيل الدكتور شاكر الفحَّام، الذي صنعني على عينه، لا لأنه – رحمه الله – كان مشرفًا على رسالتي في الدكتوراه فحسب، فهو قد أشرف على كثير غيري من طلبة العربية الذين غدت بحوثهم ومؤلفاتهم مراجع في بابها، ولكن لأنني كُنْتُ أحسُّ دائمًا أنه يَمْحَضني من ثقته وتشجيعه واهتمامه أكثَرَ مما يمكن أن يجود به شيخ على تلميذه، فهل دار في خلده أن طالبه المكتهل هذا قد يكون خلفًا له في مقعده المجمعي، وإن قصَّر عن أن يكون خلفًا له في عِلْمه.

أيها السادة:

اقتضتِ الأعراف المجمعية أن يتحدث العضو الجديد عن سلفه، ولو كان ذلك السلف بقامة الدكتور شاكر الفحَّام، غنيًّا عن التعريف مُسْتغنيًا عن التنويه، فماذا عسايَ أن أُضيفَ جديدًا عن رَجُلٍ كان ملء السَّمع والبصر في الثقافة العربية بعامة، والحقل اللغوي بخاصة، فما غادر الشعراء من مُتَرَدَّم، وما ترك المكرِّمون والمؤَبِّنون والباحثون للساني مقالاً، ولا لقلمي مصالاً، ولا لشهادتي المجروحة مجالاً.

وما أُراني إلا مذكِّرًا بما يعرفه القاصي والداني عن العَلَم السَّلَف، الذي ولد في حمص سنة (١٩٢١)، ونال الإجازة في الآداب من جامعة القاهرة سنة (١٩٤٦)، ثم الماجستير سنة (١٩٦٠)، فالدكتوراه سنة (١٩٦٣).

عمل مدرسًا للمرحلة الثانوية، ثم مدرسًا بكلية الآداب، ثم وزيرًا للتربية، ثم سفيرًا لبلدنا في الجزائر الشقيقة، ثم رئيسًا لجامعة دمشق، ثم وزيرًا للتعليم العالي، ثم وزيرًا للتربية للمرة الثانية، فوزيرًا للتعليم العالي للمرة الثانية أيضًا.

انتخب عضوًا في مجمع اللغة العربية بدمشق سنة (١٩٧١)، ثم نائبًا لرئيس المجمع سنة (١٩٧٧)، عُيِّن مديرًا عامًا للموسوعة العربية بدمشق، ثم انتخب رئيسًا لمجمع اللغة العربية بدمشق سنة (١٩٩٣)، إلى وفاته سنة (٢٠٠٨).

كان الدكتور الفحَّام شخصيَّة علميَّة عربية مرموقة، حَرَصَتْ عليه معظم المجامع اللغوية العربية، فكان عضوًا في المجمع العلمي العراقي، والمجمع الأردني، ومجمع القاهرة، والمجمع العلمي الهندي بعليكرة. حاز جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي سنة (١٩٨٨)، تقديرًا لجهوده المتلئبَّة في خدمة العربية وآدابها.

وإذا كان الدكتور الفحَّام لم يبخَلْ بعطائه الثقافي واللغوي على أمَّته، فإن الوطن لم يضنَّ عليه، بما أسند إليه من مناصب رفيعة، وما أوكل عليه من مهام جليلة، وبما أقيم له من حفلات تكريم هو أَهل لها.

لم تك تلك المناصب والألقاب سوى معالم رسميَّة في مسيرة الرجل فحسب، أتت وذهبت، كما كلُّ أعراض الدنيا، ولكن ما لن يذهب أبدًا وما سيخلد ذكراه – إن شاء الله – هو ما يمثله السَّلفُ الكبير من قيم ومبادئ في الثقافة العربية المعاصرة، فمن هو في هذه الثقافة ؟

أولاً: هو ثروة لغوية أدبية، فإن المتتبع لآثاره واجد أن السياسة والإدارة لم تصرفاه عن البحث والتَّصنيف، لأن الرجل ابن ثقافة ترى أن خير ما يترك الإنسان وراءه، علمٌ ينتفع به، وقد تمثلت هذه الثروة في:

– أربعة كتب مؤلفة هي: الفرزدق، الدلائل في غريب الحديث. ومختارات من شعر الأندلس، وكان يدرسها – ونظراتٌ في ديوان بشار بن برد – وهي في الأصل مجموعة بحوث جُمعت في سِفْر.

– وفي كتابٍ وأَحدَ عشر نصًّا محقَّقًا. أما الكتاب فهو ديوان الفرزدق المشهور، وأما النصوص المحققة فأهمها: (كتاب اللامات) لأحمد بن فارس، (وحديث الشعبي في وصف

الغيث)، وترجمة أبي علي الفارسي مستخرجة من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم، وترجمة أبي الفتح البُستي مستخرجة من كتاب الوافي بالوفيات للصلاح الصفدي، وترجمة حميد بن ثور الهلالي مستخرجة من تاريخ دمشق لابن عساكر. وقد جاءت تلك النصوص في نحو (٤٥٠) صفحة.

– وفي ثمانية وعشرين بحثًا ضافيًا، جاءت في نحو مئتي صفحة نشرت في مجلة مجمع دمشق والقاهرة والمغرب ومجلة (العرب) السعودية.

– وفي خمسة عشر مقالاً، تحت باب (التعريف والنقد) في مجلة مجمع دمشق، جاءت في نحو (٣٨٠) صفحة.

– وفي إحدى وعشرين مقدمَّة لكتب، تنويهًا بما كان قيِّمًا منها، أو إشهارًا لما توسَّم النَّفْعَ والجدَّة فيه. منها مقدمته لكتاب (مبادئ الطب الباطني) لمؤلِّفه هاريسون وترجمه د. حسني سبح. ومقدمة (ديوان دريد بن الصمَّة)، ومقدمة الأشباه والنظائر. وأربت هذه المقدمات على ثمانين ومئة صفحة.

– وفي ثمان وثلاثين كلمةً أو خطبة في افتتاح الندوات أو المؤتمرات اللغوية في المجمع وخارجه، أو في حفلات استقبال الأعضاء المجمعيِّن أو تأبينهم زادت على (٣٠٠) صفحة.

ثانيًا: هو منهج متفرِّد في التحقيق والبحث: غنيٌّ عن البيان أن حجم الأعمال التي ذكرنا ليست مقياسًا لعلم الرجل، بل مسبار ذلك ما بلغته تلك البحوث والتحقيقات من الدقة العلمية والإضافات غير المسبوقة، فالدكتور الفحَّام كان لا يكتفي بتحقيق المخطوط، وفق القواعد المألوفة للتحقيق، بل كان يبني دراسة وافية حول النصِّ المحقَّق وآثاره وشيوخه وأسلوبه. وإن القارئ ليعجب من مدى صبره وجهده في تتبُّع الأسانيد والروايات ومقابلتها، ومحاكمتها والموازنة بينها، مُلْزمًا نفسه ما لا يلتزمه معظم المحقِّقين. لقد كان مدرسة متميزة في التحقيق والضبط.

أما في البحث والدراسة، فأهم ما يلفت النظر في أعماله هو المنهج الديكارتي

القائم على الشَّكِ وعدم التسليم بالفكرة أو المقولة أيًّا كان حظُّها من السُّطوع قبل أن يشبعها نظرًا ومحاكمة. إنه صاحب منهج علمي يتسم بالحَيْدة والموضوعية والتواضع. وكثير ما كان يردِّد عبارات من مثل: «لا أزعم أن ما جئتُ به هو الحق الصُّراح، وإنما هو رأيٌ لاح لي فَسَجَّلْتُه معزَّزًا بحُجَّته، لا أملك أن أقطع فيه بيقين. وما ابتغَيْتُ إلا وَجْهَ الحقِّ أدور معه حيث يدور، لا يميل بي هوى، ولا تستفِزُّني شهوة المغالبة، ولا يعطفني إِلْفٌ، ولا أنزع عن عصبيَّة، وليُعَلِّمني أساتذتي السادة العلماء، فإنما العلم بالتَّعَلُّم ومن ترك قول لا أدري أصيبَتْ مقاتِلُه.»

ثالثًا: هو غَيْرَةٌ وحميَّة على العروبة والعربية، فقد كان – رحمه الله – عروبيًا أصيلاً، والعروبة عنده عقيدة ولغة وثقافة وأرض وتاريخ، لا يساوم على هذه القيم والثوابت. ولعلَّ غيرته الشديدة على العروبة والإسلام جعلَتْه منهومًا بقراءة التاريخ وتبصُّره، وتُفْصِح عن ذلك المقدماتُ التي كان كتبها لمجلة (دراسات تاريخية) إذ كان مشرفًا عليها، واستثمر معارفه التاريخية الواسعة في ردِّ الشُّبهات عن العروبة والإسلام، يقرع الحجَّة بالحُجَّة والدليل بالدليل. وما كان يثير حفيظته – على وقاره – إلاَّ أن يرى إلى متطاول يمسّ مناقب هذه الأمة أو يُسيء إلى ماضيها. كان يدعو إلى إنصاف التاريخ العربي ممَّا وسمه به المتعصِّبون من الغربيِّين، ولذا كان من دُعاة إعادة كتابة التاريخ العربي، ليكونَ تاريخ مجتمع وحضارة وعلم وإبداع، لا تاريخ أُسَرٍ حاكمة فحسب، كما صوره كثير من المؤرخين. بل إن غيرته امتدت إلى الشعوب الجزيرية الشقيقة – ولا أقول الساميَّة – كالكنعانيين والآراميين والسُّريان، فكان نقده جريئًا لمؤلف كتاب (تاريخ العالم) لأنه بخس الشعوب الجزيرية حقَّها ولم يعتدَّ بحضاراتها.

كما أن غَيْرَتَه على اللغة كانت بلا حدود، إذ أمضى حياته مُعَلِّمًا لها، حَفِيًّا بروائعها، منافحًا عن أصولها، حتى إن غيرته الشديدة كادت تسْلكه في عِداد المتشدِّدين – ولا سيما بأخَرة – ولعل مردَّ ذلك إلى حذره البالغ من المخاطر التي رآها تتربَّصُ

بالعربية، على أنَّني لم ألمس منه مثل ذلك التشدُّد في عهد الطلب والدراسة عليه.

أما عن أسلوبه البياني – والأسلوب هو الرجل كما يقولون – فلا أجد في وصفه خيرًا مما قاله هو في صفة أسلوب العلامة عبد العزيز الميمني فأقول: «لقد رُزق الدكتور الفحَّام ملكة التعبير، فأسْلَسَتْ له العربية قيادها، يُصَرِّفها كيف يشاء، فتميَّز بأسلوبه المشرق المعجب، يُمتِّع الناس بنصاعة بيانه ورُواء ديباجته، إنه ليذكِّرك بأولئك المبدعين من كتاب القرن الرابع الهجري.»

وبعد.. فإنني أستميحكم العذر أنْ ليس بمُكْنَتِي أن أختزل البحر بقطرة، ولا أن أجتزئ عن الطود بصخرة، ولا أن أختصر الرياحين بزهرة، ولا أن أوجز عِقْد سيرة هذا السَّلف بشَذْرة.

السادة العلماء، الحضور الكريم:

اللغة العربية ما تزال بخير... أجل ليست هي في أحسن أحوالها التي نأمل، ولكن «النُّطْقَ بها ليس من المعايب معدودًا» كما كانت قبل سبعة قرون بحسب عبارة صاحب لسان العرب. كما أنَّه «لم تَدُرْ على ذويها الدَّوائر، حتى لا لها اليوم دارسٌ سوى الطَّلَلِ في المدارس، ولا مجاوبَ لها إلا الصَّدى ما بين أعلامها الدَّوارس» بحسب عبارة صاحب القاموس المحيط قبل ستة قرون.

أجل ليست عربيتنا اليوم على تلك الحالة. فما زال معظم أبنائها يردِّد:

«لُغَةٌ إذا وقَعَتْ على أسماعنا كانت لنا بَرْدًا على الأكبادِ»

وما زالت عصيَّة على الفناء، ذلك أنها تحمل في بنيتها عناصر قوَّتها وبقائها، إننا لا نَخْشى عليها الزَّوال، فهي محفوظة بالوعد الإلهي الخالد:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحِجْر: ٩] وهي الآن اللغة الخامسة في العالم من حيث الانتشار يتلاغى بها ويتواصل – وإن على درجات متفاوتة – خُمسُ سكان هذا الكوكب عربًا ومسلمين، وهي اللغة الرسميَّة السادسة في الأمم المتحدة، ممَّا جَعَل كثيرًا من

الجامعات الغربية تَنْظِمُها في مقرراتها، كما أن مؤسسات الشابكة (الإنترنت) وشركات البرمجيَّات العالمية صارت تصدر الترجمة العربية لبرامجها متزامنة مع ظهور النسخة الأم... ولكنَّ الذي نخشاه ونتحوَّط منه ألا تكون العربية لغة حياة معاصرة، أي لغة علم وتقانة، كما هي – باقتدار – لغة آداب وشرعيَّات. نريد لها أن تكون لغة حيَّة، واللغة الحية هي التي لا تخذل صاحبها في التعبير عن شتَّى مناحي الحياة ومختلف ميادينها. لما كان التقدُّم العلمي والتقاني هما أبرز سمات العصر الذي نعيش، فعَلَيْنا أن نجعل من العربية لغة علم وتِقانة، وأن ننجح في الاختبار الذي نجح فيه أجدادنا في القرون الهجرية الأولى، عندما طوَّروا العربية فانتقلت من لغة بيان في الجاهلية إلى لغةِ بيانٍ وعِرْفان في صدر الإسلام، ثمَّ إلى لغة بيان وعِرفان وبرهان في عصور الازدهار اللاَّحقة.

السادة الحضور:

يجب ألا تَدْفَعنا الثِّقة بلغتنا إلى التَّغاضي عما تعانيه من مُعوِّقات وما تواجهه من إشكالات:

وأول هذه المعوِّقات وأخطرها مزاحمة اللغات الأجنبية إياها في التعليم الجامعي. إن تقديم العلوم وتدريسها باللغات الأجنبية وما يمكن أن نُسَمِّيَه (تعجيم التعليم) في مقابل (تعريب التعليم)، هو الذي سيحول حتمًا دون تطور العربية ومعاصرتها، فلا حياة للغةٍ لا تُعَبِّر عن متطلبات العصر الذي تعيش وعلومِه وصناعاته. وما قول بعضهم (إنَّ العلم لا يُؤْخذ إلا بلغة واضعيه) إلا فِرْيَةٌ كبرى، لو انْطَلتْ على أجدادنا، فلم ينقلوا علوم اليونان والهند وفارس إلى العربية، يُعَلِّمون بها ويُصَنِّفون، لما كان لنا اليوم ما يعرف بالحضارة العربية الإسلاميَّة، ذلك أنه لا يُعَدُّ من حضارة أمَّةٍ إلاَّ ما كُتب وأُلِّف بلغتها. ولو صَدَّقتْ هذه الفريةَ الأممُ المعاصرة، لما كانت كل الأمم – إلاَّنا — تُعَلِّم بلغتها القومية، صغيرة كانت تلك الأمم كبلغاريا وفيتنام أم كبيرة كالصِّين واليابان.

إن تعريب الإدارة والتعليم في بداية عصر النهضة والاستقلال، هو الذي طوَّر العربية وجعل منها لغة معاصرة إلى حد بعيد. لقد رفع القطر العربي السوري راية التعريب منذ عشرينيات القرن المنصرم، واستطاع إدراجه ركنًا من أركان الخطة القومية الشاملة للثقافة

العربية، ولقي خريجو جامعاتنا المعَرَّبون النَّجاح المهني في الوطن العربي، والفلاح العلميَّ في الدراسات العليا في الجامعات الأجنبية. كان التعريب وما يزال مفخرة هذا القطر ومَطْمَح معظم أَشِقَّائه، وحجة أنصار العربية الذين يجاهدون لتعميم تجربة بلدنا في تعريب العلوم والتعليم، وصار قطرنا عَلَمًا على تلك السياسة العروبية.

ولكنْ... وبكثير من الأسف والألم بدأْنا نرى محاولات لنَكْثِ ما غزل الآباء، وفَتْق ما رَتَق الأجداد، عندما صارت بعض الجامعات الخاصة، بل وبعض الثانويات الأهلية تُدَرِّس العلوم باللغات الأجنبية، موهمةً بعضهم أن العربية لا تصلح لغة علوم... إن ما تحمله هذه الردَّة اللغوية والثقافية من آثار مدمِّرة على لغتنا وثقافتنا خطير، ذلك أن إقصاءَ العربية عن الحياة العلمية المعاصرة مَفْقرةٌ لها ومَزْهَدَةٌ بها، فضلاً عن إيجاد شرخ بين الشباب العربي المعرَّب منه وغير المعرَّب، يُدْخلنا في مفاضلات سقيمة ومنافرات تُفْسد ما انعقد عليه الإجماع الوطني من أن العربية هي لغتنا الرسميَّة إدارة وتعليمًا. وما كان أصدق (الملك فيصل الأول) رحمه الله عندما اقْتَرَح بعضهم أن تكون الفرنسيَّة لغة تعليم في المعاهد الجامعية التي أنشأَتْها الحكومة العربية آنذاك، فأجابه: «إذا أردنا أن نعلم أبناءنا بالفرنسية فلنرسلهم إلى فرنسا ولا حاجة للمعاهد العربية». وما كان أحصف الرئيس الجزائري (هواري بومدين) رحمه الله، عندما قال للدكتور شاكر الفحَّام وصحْبه لدى استقبالهم عُقْبَ أحد المؤتمرات اللغويَّة: «إن قضية التعريب لها الشَّأنُ الأول في حياة الأمَّة، وسوف أعرضها على أوَّل مؤتمر للقمة القادمة وأطالب بإقرارها».

إنني أتوجه من هذا المنبر العريق إلى السادة المسؤولين في هذا القطر بأن يتداركوا هذا الخطر قبل أن يستفحل... ولا يَظُنَّنَّ أحدٌ أننا نُعارض تعليم اللغات الأجنبية، فنحن مع تعليمها وإتقانها، بل نحن نُلِحُّ على أن يقدم الطالب الجامعي بعض المقررات العلمية كاملةً باللغة الأجنبية، وهو ما تنصُّ عليه لوائحنا الجامعيَّة. إننا لا نريد أن نُضْعف لغتنا بدَعْوَى التحصيل العلمي، ولا أن نوهن التَّحْصيل العلمي بدعوى المحافظة على العربية.

وثاني هذه المعوِّقات: تَدَنِّي مستوى الأداء اللغوي في تعليمنا وإعلامنا، وإذا كان يحق لنا الاعتزاز بأداء كثير من معلِّمينا وإعلاميِّينا الذين تتأنق العربية على ألسنتهم وتَخْضَلّ، فيُسْهمون في تنميتها وإغنائها، مما يدعو إلى الثناء عليهم وتثمين جهودهم، فإنه يحقُّ لنا أن نشير بأسىً إلى تدنِّي مستوى الأداء اللغوي لدى الكثرة منهم، ولا يصح اختزال إشكالية الأداء اللغوي بالمعلم والإعلاميّ كفردَيْن، بل لابد من أن تعالج هذه الظاهرة بتشعُّباتها وارتباطاتها بنظام التعليم مناهجَ وكُتُبًا ووسائلَ وطُرقَ إعداد.

وثالث هذه المعوقات: التَّقْصير في حوسبة اللغة العربية، لقد دخل العالم عصر المعلوماتية، وغزا هذا العلم كل مجالات الحياة ومنها اللغاتُ، وكاد نظام الثقافة الورقية يأفُلُ مخليًا السَّاحة لنظام الثقافة الرقمية. واللغة التي لا تُفيد من هذا النظام الجديد وتتفاعل معه، سوف تجد نفسها – مع مرور الزمن – خارج دائرة الثقافة العالميّة واللغات الحيَّة. إن لغتنا – بشهادة المختصِّين العِلميِّين – تحمل من الخصائص والمزايا ما يؤهلها لدخول عصر المعلوماتية بجدارة، فلنعمل بلا كلال للإفادة من هذا العلم الحديث في خدمة العربية، حفظًا لتراثها وتطويرًا لأساليب تعليمها وتعلُّمها، ونَشْرًا لها في العالم.

ورابع هذه المعوقات مزاحمة العاميات للفصيحة: وقد يعجب بعضهم من أنني جعلت هذا المعوِّق في آخر ما يواجه العربية اليوم!! ذلك أنني لا أعُدُّ مزاحمة العاميَّةِ الفصيحةَ في خطورة ما سبق من المعوقات، لأمور أهمها:

١– إن اللهجة العامية مستوى من مستويات الخطاب اللغوي في أي لغة فليس من لغة ليس فيها عاميَّة، مع اختلاف درجة بُعْد تلك العامية أو قربها من اللغة السليمة. ولغتنا ليست بِدْعًا بين لغات العالم في هذه الإشكالية.

٢– لقد تعايشت العامية العربية مع العربية الفصحى منذ عصر الاحتجاج. لم تستطع العامية أن تُزَعْزِع مكانة الفصيحة لغة بيان وعلم وأدب، حتى في أحلك سنوات الضَّعف العربي. ولم تستطع الفصحى أن تُزيل العامية من موقعها الاجتماعي، حتى في أزهى قرون

الازدهار العربي. وإذا كان بعض أعداء العربية من الشعوبية المعاصرة ودعاة الإقليمية قد راهن على موت العربية الفصيحة وخسر الرِّهان، وتنبَّأ بتسيُّد العاميات وكذبت نُبوءَتُه، فإننا لم نراهن أبدًا على موت العامية، بل دعونا دائمًا إلى تحسينها ورفع مستواها لتقريبها من السَّلامة اللغوية ما أمكن. وما زال الواحد منا – كما كان علماؤنا في القديم – يَسْتروح ظِلَّ مثل شعبي من أمثالها، ويرتاح على ضفاف مَوَّال شَجيٍّ من مواويلها.

٣- إن الاتجاه العام في العصر الحديث هو ميل اللهجات العامية العربية إلى التَّفَصُّح واقترابها أكثر فأكثر من مستوى السلامة اللغوية، وذلك بفضل وسائل الإعلام المكتوبة التي تلتزم العربية الميسَّرة والسليمة إجمالاً، وبفضل الفضائيات العربية الجادَّة الملتزمة التي تبرهن يومًا بعد آخر على أن العربية قادرة على التَّعاطي مع معظم مستجدات العصر، والوفاءِ بجُلِّ مستلزماته.

٤- إننا نرى أن الجَلَبة في موضوع العامية صارفةٌ النَّظر عمَّا هو أخطر على العربية وأعني (تعجيم التعليم)، فليتعاون محبو الفصيحة والعامية لدرء الخطر الذي يستهدف اللغة العربية بمستويَيْها الفصيحِ الآن، والعاميِّ غدًا.

وخامس هذه المعوِّقات: ضَعْف الوعي اللغوي، مما يُفَسِّر التساهل في قبول المفردات الأجنبية والمسمَّيات الأعجمية في الشارع العربي، وإلى أولئك الذين يقولون: (دعوا الناس يتكلمون كما يريدون ولا تَضَعُوا القيود على ألسنتهم)، أقول: تُرى لو قال آباؤنا مثل قالَتِهم عندما بدأ اللحن يَفْشو على الألسنة في القرن الهجري الثاني، فهل كان لنا اليوم لغة عربية؟ همس لي رئيس أحد المجامع الشقيقة شاكيًا التَّلَوُّث اللغوي الذي آلمه في شوارعنا سواءً في أسماء المحالّ أو الإعلانات، فحاولت أن أُخَفِّف من شكواه بأن ما من مدينة عربية تخلو من هذه اللوثة، فقال: إنكم يا أخي لا تقدِّرون تمامًا مكانة دمشق في نفوسنا إننا ننظر إليها على أنها معقل العربية وموئلها، فَلْيَبْقَ هذا المعْقِل كما عهدناه أبيًّا على العُجْمة، نفورًا من التغريب.

السادة العلماء المجمعيون:

طالما آمنت بمجمع اللغة العربية بدمشق حصنًا من حصون العربية، ذائدًا عن حياضها أن تُهَدَّم، غيورًا على حُرُماتها أن تُزَنَّ بسوء. وما برح هذا الإيمان ثابتًا لا يتزعزع، على تخذيل المخَذِّلين وتعريض المعَرِّضين. إنَّ كائنًا من كان لا يستطيع إنكار جهود مجمعكم الرائد منذ تسعين عامًا، وهي جهود نعتز بها جميعًا، من إحياءٍ لنفائس الكتب تحقيقًا ونَشْرًا، ومن تعريبِ لغة الإدارة والجيش والتعليم في بدء الاستقلال، ومن حِراكٍ ثقافيّ أحياه وقاده بسلسلة ذهبيَّة من الندوات في رحابه، بعد أن ران على المجتمع الدمشقي سُباتُ سنوات التَّتريك العجاف، ومن فَتْحِ أبواب مجلته العريقة والرَّصينة للبحث اللغوي الجاد، ومن إسهامٍ مشهود في تصحيح الكتب المدرسية التي ما كان يجوز واحد منها دون أن يمهر بتدقيق واحد من رجالاته... أقول: إذا كان ليس بمقدور المتتبِّع لمسيرة المجمع تجاهل تلك الجهود، فليس بمقدوره أيضًا إلا أن يشير إلى بعض مكامن خلل أو مواطن زلل، فالرِّضا الدائم عن النفس مَظَنَّة العثار، وعُجْب المرءِ بعمله مُورِدُه الخَطَل والتبَّار، والمنهج العلمي يقتضي مراجعة العمل خُطَّة وأسلوبًا وأداءً في ضوء مستجدات الحياة ومتغيِّراتها. وبسبب من هذا أجد نفسي مشيرًا إلى آفاق في العمل المجمعي لا تخلو من أن تكون تأكيدًا أو تذكيرًا أو تجديدًا لم يغب عن نباهة أساتذتي في المجمع.

إنني أدعو إلى التعاون والتعاضد مع شركائنا في الهمِّ اللغوي والثقافي، ولا سيما اللجنة العليا للتمكين للغة العربية، ووزارة التربية، ووزارة التعليم العالي بجامعاتها ومعاهدها، ووزارة الإعلام بمؤسساتها، ووزارة الثقافة واتحاد الكتَّاب العرب. وحبذا لو نظمت مؤتمرات سنوية لممثلي هذه الجهات في رحاب المجمع، وأن يكون لتوصياتها صفة الإلزام لمتَّخذيها، وهم من المؤتمنين على لغة الأمة وثقافتها. وإذا كان يُنْظر إلى المجمع على أنه المؤسسة الموكول إليها حمايةُ اللغة وترقيتُها، فإن اللغة أكبر من المجامع، لأنها لغة الأمة، وكل مؤسسة بل كل فَرْدٍ في الأمة يقف على ثُغْرة من ثُغَرها، وعليه ألا تُؤْتى من قِبَله.

ومما يساعد المجمع في أداء مهامه، ارتباطه العضوي بالمجتمع والمحيط، من خلال شبكة من العلاقات العامة مع المؤسسات والأفراد، عسى أن يكونوا رِدْءًا له في ترجمة تطلعاته اللغوية، وكذا تفاعله مع العالم الخارجي عبر الشابكة (الإنترنت)، ومن خلال موقع إلكترونيّ نشيط وغَنِيّ، يعرض إنجازاته وخدماته اللغوية على الزائرين ويجيب عن استفساراتهم.

وإذا كنا ندعو إلى التعاون مع شركائنا في الهم اللغوي في قطرنا، فإننا ندعو أيضًا إلى التعاون والتَّآزر بين مجامع اللغة العربية في الوطن العربي، ولكل منا إسهامٌ يذكر فيشكر في حماية العربية والذَّوْدِ عن ثقافتها، وتطويرها وتطويعها لمتطلبات العصر وعلومه. إن المشاريع اللغوية المشتركة في حقول المعجمية والمدوَّنة اللغوية، وتحقيق التراث وتعليم العربية للناطقين بها ولغيرهم، كل ذلك يمكن أن يكون مضمون خطة لغوية شاملة للنهوض بلغتنا. ثم إنّ الحاجة إلى مرصد لغوي باتت ملحَّةً، فعلى المجامع اللغوية أن تسبِق الكَلِمَ المحْدَث في حقول الإعلام والاجتماع والاقتصاد وغيرها فتقترحَ المقابلات العربية لها قبل أن تشيعَ مُسَمَّياتها الأجنبية فَيَعْسُرَ التَّخَلُّصُ منها.

السادة العلماء:

إن من واجبنا الإفادة ما أمكن من الصحوة اللغوية العامة التي تجسَّدت في قرار مؤتمر القمة العربية في دمشق حول اللغة العربية، وفي توصيات وقرارات مؤتمر وزراء الثقافة العرب في دمشق في العام الماضي، وفي القرار الذي اتخذته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية بالتنسيق مع المنظمة الإسلاميَّة للتربية والثقافة والعلوم بتخصيص يوم للغة العربية، يُحْتَفى فيه بها، يُبَصَّر بمكانتها في حياة الأمة ووحدتها. ولا شَكَّ في أن إصدار قانون لحماية اللغة العربية سوف يضيف مأثرة تتوِّج ما سبق من جهود خيرة.

أيها السادة: بدأت القول بأن لغتنا بخير.. وأختم بأنها ستبقى بخير... ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [سورة النحل: ١٠٣] ولن تغلب عجمةٌ بيانًا بإذن الله.

أشكر لكم استماعكم وحسن اصطباركم. والسلام عليكم